الإسلام وحملات الإساءة ! (*)

لم يمض على عضويتى لمجمع البحوث الإسلامية إلاّ ثلاث سنوات، ومع ذلك عرض علينا خلالها كثير من الهجمات الجائرة المفتئتة على الإسلام ورسوله عليه السلام، معظمها آتية من الخارج، من الدانمارك أو بابا الفاتيكان أو غيرهما من بلدان الغرب، إلاّ أن أقلاما مسلمة، ومن داخل مصر، ساهمت فى هذا الغثاء تحت تعلة التنوير، وماهو بتنوير ولكنه تسخيم لوجه الإسلام فى وقت تأتيه رياح الافتئات ظالمة جهولة من كل باب. لقد شاركت وناقشت، وصغت فيمن صاغوا كثيرا من بيانات الشجب والاحتجاج، وكثيرا من عبارات الدعوة إلى التعقل والإنصاف، فلا هذه نفعت، ولا تلك أجدت، واستمرت حملات الخارج، وانفلاتات الداخل، دون أن ترعوى أو تقتصد أو تفهم المخاطر والمحاذير فى هذا المساس الغشوم بسقوف الأديان !

والحملة المشنونة بالغرب وأمريكا على الإسلام، لا تقتصر على إيذاء مشاعر المسلمين، إنما هى تصب فى صميم حياة المسلمين هناك، وأعدادهم ليست قليلة ولا هينة، بل بالملايين العديدة كما هو حاصل على

---

* الأهرام ٢٠٠٨/٣/٦، ٢٠٠٨/٣/٢٠، ٢٠٠٨/٤/٣

سبيل المثال فى كل من أمريكا وروسيا وفرنسا وألمانيا وغيرها. فتعداد المسلمين فى الولايات المتحدة قد قارب سبعة ملايين مسلم، ونحو ستة ملايين فى فرنسا، وخمسة عشر مليونا فى روسيا، وقرابة أربعة ملايين فى ألمانيا، وقرابة المليونين فى بريطانيا، وزيادة عن المليون فى البلاد الواطئة، وكذا فى بولندا، ونحو ٢٠% من جملة سكان يوغوسلافيا قبل التفتيت، غير المسلمين وهم بمئات الألوف وتقترب أحيانا من المليون فى باقى الدول الأوروبية غير دول الأمريكتين. الصورة المغلوطة التى يصورون بها الإسلام هناك، تخلق متاعب عديدة للمسلمين المضطرين للتعامل مع الأنظمة ومع المجتمعات التى يعيشون فيها فى القارة الأوروبية أو الأمريكتين. حملات الكراهية وتشويه الإسلام فى هذه الدول لا تمس فقط مشاعر المسلمين هناك، إنما تحيل حياتهم وسط هذه المجتمعات اللافظة إلى جحيم موصول ! وظنى كذلك أن المتطرفين الذين يعطون المادة لحملات مهاجمة الإسلام، لا يلتفتون إلى قدر الأزمات والمصاعب التى يتسببون فيها بأعمال طائشة لا طحن لها، بينما هى تنحر من صورة الإسلام والمسلمين بعامة، وتسبب لجالياتنا الإسلامية العديد من الأزمات والمصاعب وتجعل من حياتهم جحيما وسط محيط بات يتوجس منهم أو يصطنع الأسباب لمجافاتهم ثم للفظهم وطردهم من هذه البلدان التى كانوا فى السالف عنوانا جاذبا فيها للإسلام.. ودالاً فى الوقت ذاته على جور وافتئات الصورة الكاذبة التى ظلوا يحشدون بها الكتب فى الغرب ضد الإسلام على مدار قرون، فلما جعلت الصورة تتعدل لصالح الإسلام والمسلمين، تردت الحركات الشاذة والمتطرفة ببعض الأعمال الجامحة

التى يأباها الإسلام نفسه - فى إعطاء الفرصة لرد الحاضر إلى ما كانت عليه الكراهية للإسلام وزيادة !

المسلم فى الشرق والغرب، ابن البلد أو وافد أو مهاجر فى البلد الذى فيه يعيش، يرى الإسلام كما يعتقده هو ويؤمن به، وبوسعه أن يعرف كم هو جائر وغير صحيح أن تحسب الأعمال المتطرفة الضالة على الإسلام. فهو يعرف كيف أن الإسلام نهى عن العنصرية، واعتنق السماحة والمساواة، وأقام شريعته على شخصية المسئولية بحيث لا يسأل الشخص إلاّ عما يفعل، ولا يحاسب على فعل أو عمل غيره. أينما ولى المسلم يرى حقيقة الإسلام فى مصادره الإسلامية المكتوبة قرآنا وسنة وسيرة وأثراً، أو مسموعة فيما يتلقاه من تلاوة ترددها الإذاعات المسموعة والمرئية، أو دعوة رشيدة لا يعدم الوصول إليها، إلاّ أن الأجنبى غير المسلم لا يطلع ولا يرى شيئا من ذلك، فكل هذه الروافد غير موجهة إليه، وهو لو صادفها لا يستطيع لحاجز اللغة أن يلم بها، وتكاد رؤيته للإسلام أن تكون محصورة فى المشهد المتطرف الشاذ الذى لا ينتمى للإسلام ولا يصوره أو المسلمين ولا ينصفه أو ينصفهم. حادث تفجير واحد، فى مدريد أو لندن، أو فى الرياض أو الأقصر - يحتل للأسف معظم الصورة التى يفهمها الآخرون للإسلام والمسلمين، وهيهات أن تقنعهم بخطبة عصماء أو بيان شجب، أن هذا من فعل متطرفين مغالين وليس من الإسلام.. يساهم فى ضياع الصدى أنهم يتكلمون لغات غير لغتنا، ولا يفهمون بالتالى خطابنا ولا بثنا ولا دعوتنا، بينما تلح عليهم ميديا عالمية معظمها أحول يحكمه الهوى - بأن هذا هو الإسلام، ويجتزئون كلمة فى آية، يخرجونها من السياق، ليقولوا امسك هذا هو القرآن - أليست تقول الآية : " ترهبون به

عدو الله وعدوكم " - إذن هذا هو الإرهـاب، ومصدره ومنبعـه، لا تعميهم الآية، ولا يعنيهم سياقها، ولا حقيقة مقصدها، وإنما يتسقطون لفظة من هنا وأخرى من هناك ليقولوا إرهاب الإسلام أو فاشية القرآن، فى الوقت الذى يصابون فيه بالعمى الضرير عن رؤية مقاطع كاملة مليئة بالدماء والتقتيل والتحريق فى العديد من أسفار العهد القديم، ولا ما فيه من إساءة واتهامات وإهانة للأنبياء.الميديا الإعلامية العالمية مغرضة ولا شك، ولكننـا نحـن المسلمين نمدهم بالمادة المغذية فى بعض سلوكياتنا الغريبة الغارقـة فـى مظهر شكلى فقط وعافاه الزمن، وابتعادنا عن جوهر الإسلام والتـشويش على صورة المسلم الحق الذى هو عنوان الإسلام وآيته إلى الدنيا، بينمـا يلاحقنا المتطرفون ويلاحقـون العالم بأعمـال عبثية تـضرب ضربـا عشوائيا على غير سنن ومبادئ الإسلام لتحسب فى النهاية على المسلمين وعلى الإسلام !

هـذا المشهد لا يقبل أن نغسل أيدينا منه بالولولة، ولا بالآهات، ولا ببيانات الشجب، ولا بالخطب العصماء. هذا المشهد يحتاج إلى محـورين كبيرين بالغى الأهمية : مراجعة النفس مراجعة شـاملة المظهـر العـام والسلوكى للمسلم بعامة، وموجات التطرف والمتطرفين وأثرهما المـدمر بخاصة، وخطاب للآخر معنى به وموجه إليه بلغته هو حيثما هو لا بلغتنا نحن. وظنى أننا مفرطون حتى النخاع فى مراجعة النفس، وفـى مناسـبة ولغة خطابنا للآخرين !

على أنه يخطئ التشخيص من يظن أن الحملة الغـشوم المطلقـة الآن على الإسلام - طارئ جديد، فتاريخ الغرب فى النكير على الاسلام، وسوء فهمه والتهجم عليه وعلى رسوله الكريم - أمر قديم، يـستطيع مـن يريـد

تقصيه أن يراجعه فى العرض الوافى جدا الذى أوردته الراهبة السابقة : كارين أرمسترونج فى كتابها الضافى : " محمد " الذى ترجمه الدكتوران محمد عنانى وفاطمة نصر. والمؤلفة إذ تتبع هذه الحملة الغشوم على الإسلام عبر قرون، تؤكد أنها تحققت من أن تلك الأحقاد دافعها المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلقة، ثم هى وراء ما يتبناه الغرب من مواقف إزاء " الآخر " وهذا الآخر - فيما تصرح - هو الإسلام ! تقر الراهبة السابقة - أن لديهم فى الغرب تاريخاً طويلاً من العداء للإسلام، وبأنه راسخ الجذور مثل عدائهم للسامية، ولكن الكراهية القديمة للإسلام تواصل ازدهارها - فيما تقول - على جانبى المحيط الأطلسى، ولم يعد يوجد وازع - والكلام لها - يمنع الناس من مهاجمة ذلك الدين حتى ولو كانوا لا يعرفون عنه إلاّ القليل. تعزو المؤلفة هذا العداء الحاضر إلى أنه لم يحدث قبل ظهور الاتحاد السوفيتى أن واجه الغرب تحديا يوازى التحدى الذى يمثله الإسلام. تزداد هذه الصورة جلاء لدى من يستصفى ويستقطر كتاب " صدام الحضارات " لصمويل هنتنجتون، وهو ما تنبأ به العقاد من أكثر من نصف قرن فى الكثير من كتاباته.. إن عداء الغرب القديم للإسلام يحمل الآن بذور ودوافع وأغراض السياسة التى أقلقها ولا يزال تقدم الإسلام واتساعه.. أو على حد ما ورد فى الدراسة البحثية التى نشرت مؤخرا للمعهد البحثى المسيحى Christian Research Institute وهى متاحة على الإنترنت، وتؤكد أن الإسلام يزداد انتشاراً وقوة فى العالم، وأنه بات يمثل أقوى التهديدات أهمية للكنيسة الأمريكية، وأن المؤشرات تورى بأنه أسرع الأديان انتشاراً ونمواً فى العالم وفى أمريكا، وأن نسبة نموّه وانتشاره فى الولايات المتحدة ما بين

سنتى ١٩٨٩، ١٩٩٨ - قد زادت بنسبة هائلة، كذلك فى فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة، وأن المصادر المسيحية والإسلامية تتفق على تأكيد أن الإسلام هو أسرع الأديان والمذاهب انتشاراً الآن فى الولايات المتحدة، وأن الكتاب السنوى (٢٠٠٠) للكنائس الأمريكية والكندية أعطى مؤشرات مقلقة لزيادة المسلمين، وتتوقف الدراسة البحثية حائرة فى محاولة استشفاف أسباب هذا التزايد السريع فى أعداد المسلمين، تنتقل فى النهاية عن جيمس دريتك James Dretke قوله : -

' It is great thrill to see many Muslimes on our doorsteps. While we cannot easily gain entry in their countries.. God has brought them to ours "

" إنها لإثارة كبيرة أن نرى الكثيرين من المسلمين على أعتابنا، وبينما لا نستطيع بسهولة أن ننال الدخول إلى أوطانهم - فإن الله قد أتى بهم إلى أوطاننا !! "

سنظل متخلفين عن مواجهة الحرب الشرسة الضالة على الإسلام والمسلمين ما دمنا تعاملنا معها برد الفعل لا الفعل. من المهم أن نستوعب دوافع وأبعاد ووسائل وأساليب هذه الحملة ثم نتعامل معها بمنطق الفعل فى إطار رؤية شاملة وخطة مدروسة وبرنامج تفصيلى وأدوات وآليات فاعلة.

* * *

رأيت بنفسى كثيراً من الرسوم الكاريكاتيرية المنشورة بالدانمارك التى تسىء إلى رسول الإسلام - صلى الله عليه وسلم، وظنى من واقع ما لاحظته فيها من إسفاف مسف، وتطاول شنيع، واستهزاء مغرق فى السفالة - أنها تقصد قصداً إلى إثارة وإهاجة المسلمين، ودفعهم إلى ردود

أفعال مغموسة بالغضب الذى تثيره بداهة هذه الإساءات البالغة المنحطة.. يعرف المتطاولون بالرسوم المسيئة على رسول الإسلام وعلى الإسلام، أنهم لا يضربون فى المليان، ولا يقدمون حجة على الإسلام أو شيئا ذا قيمة، وإنما هم يستهزئون ويسخرون ويسفون، ويعرفون أن هذا كله لا قيمة ولا طحن له - فماذا يريدون ؟!. يريدون بالقطع إثارتنا.. ظنى أن أغلط أنواع رد الفعل هو الانفعال. هذا الانفعال هو المطلوب على الجانب الآخر ليكون شاهداً على المراد. أننا ظاهرة صوتية بانفعالات همجية لا تقدر حرية الرأى وحرية التعبير.. هكذا يقولون !.. نؤثر الغضب والثورة والضجيج على المناقشة والحوار. بعضهم يقول إن الدانمارك - مثلا - علمانية غير متدينة، وأن الغرب بعامة لا يجد بأساً من التوغل فى الأديان. ألم يخرجوا فيلم " الإغواء الأخير للمسيح " " The last temptation of Christ " صوروا فيه المسيح فى مشاهد جنسية مع مريم المجدلية على أنها مخايل راودته وهو على الصليب، وجعلوه أباً لابنة من مريم المجدلية فى فيلم " شفرة دافنشى " " The Davinci Code "، وجسدوا جلده وتعذيبه وصلبه فى فيلم " آلام المسيح ".. " The passion of Christ " ؟!.. فلماذا إذن يهتاج المسلمون على رسوم كاريكاتيرية ؟!..

يتجاهلون بذلك أنهم هم الذين كتبوا وأخرجوا وصوروا هذه الأفلام، ويتجاهلون أن هذه الأفلام التى هم صانعوها - لا تسخر ولا تهين أو تستهزئ، بينما الرسوم الكاريكاتورية محض قلة أدب واستهزاء ولغو لا يرد عليه بمنطق أو بحجة أو بحوار !

ومع ذلك فأغلط ما نفعله أن نتعامل مع هذا الإسفاف بـرد الفعـل الهائج، لأننا بذلك نعطى قيمة لغثاء لا قيمة له، مثلما روجنا بردود أفعالنـا الغاضبة أعمالا هابطة لا قيمة لها مثل رواية آيـات شيطانية ! الحـصاد النهائـى أو الحسـاب الختامى لردود أفعالنا العصبية إنما يصب لـصالح ما يريده ويستهدفه المسفون المسيئون ! نقع فى هذا الخطأ رغم أن ديننـا حض على عدم الالتفات إلى اللغو والترهات، ووصف المؤمنين فى القرآن الكريم بأنهم : " إذا مروا باللغو مروا كراماً ".. وبـأنهم : " إذا خـاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ".. لقد تَرَفَّعَ رسـول القـرآن عن مجاراة أو إعطاء أى قيمة لترهـات وإساءات ودعاوى ولغو وتطاول الكـافرين، فمـا زاده ترفّعه إلاّ قيمة وثباتا، وزاد الإسلام رسوخاً وانتشاراً..

يكفى أن نلتفت لما يحدث فى الولايات المتحدة لنعرف أن الإسلام أكبر من كل حملات الإساءة.. فبرغم أنهـم يـشنون الغـزو والحمـلات الغشومة ضد الإسلام تحت دعاوى الإرهاب، فإن الإسلام يـزداد هنـات انتشاراً، وتورى إحصائيات الكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية أن المسلمين يتزايدون بكثرة فى الولايات المتحدة رغم حملات الكراهية التى لا تتوقف هناك. يكفيك أن تعرف أن المسلمين كانوا عشرة آلاف فقط سنة ١٩٠٠، ثم وصلوا إلى مليون مسلم فى ١٩٧٠، وأنهم زادوا سـنة ٢٠٠٠ إلى ٨٥٠ ر٥ مسلم، ثم زادوا فى منتصف عام ٢٠٠٥ إلى ٠٠٠ ر ٤٩١ ر ٦ مسلم، وتقدر أعدادهم الآن بقرابة عشرة ملايين.. هذه الزيادات دليل مؤكد على أن الحملات الكاذبة المغلوطة لا تنال مـن ديـن عـامر بمبادئه وقيمه وأحكامه، مثلما لم ينل كل تهجم الكفار ودعاواهم الكاذبة من مقام القرآن المجيد، حجة الله وحبله المتين.

الإسلام ورسوله قرة عين المسلمين، لا يعنيهم حول الأحول ولا عوار الأعور الذى لا يستطيع أن يرى أو تنحرف لديه الرؤية بعماه أو بانحراف عدسة رؤيته المحدبة أو المقعرة أو المنكسرة. لن يضير الإسلام أن ينكره ناكر، ولن يذوى القرآن لعمى ضرير أمسك بتلابيب عميان أو مغرضين، ولن تختل قيمة ومقام ومكانة رسول القرآن لأن قلم أو ريشة سفيه تطاولا عليه. سيبقى الإسلام رغم كل شيء معماراً لقلوب وحنايا وعقول المؤمنين به، وسيبقى قرآنه المجيد دستورهم الهادى مهما اتهموه بالفاشية أو الإرهاب، فقيمته فيه لا فيما يغالط به المغالطون، وسيبقى رسول القرآن قدوة وأسوة للمسلمين وهداية ومنارة للدين فى العالمين. لا ينبغى إذن أن نجزع، وإنما علينا أن نفهم، وأن نترك رد الفعل إلى الفعل الذى يحيط بالمخطط ومراميه، ويتخذ له على مهل وأناة، وحكمة وبصيرة، ما يرد عن الإسلام والمسلمين كيد الكائدين !

من مزايا الخروج من موقف الدفاع، وعدم الاكتفاء برد الفعل على رسم مسيء أو تهجم وقح، أن نلتقط الأخبار والحالات والشواهد الإيجابية لنكرسها أو نبرزها بإلقاء الأضواء عليها، أو جعلها موضوعا للمناقشة واستخلاص دلالتها. من هذه الحقائق الإيجابية ما دلت عليه إحصاءات الغرب نفسه، والأمريكان، أن الإسلام يتقدم بقوة ويزداد الإقبال عليه فى الغرب، واللافت أن يحدث ذلك فى الولايات المتحدة حيث تشن إدارتها حملة شعواء على الإسلام والمسلمين !

لست أدرى لماذا يتوارى وباختزال داخل الصفحات الداخلية لصحفنا - خبر دخول ثانى مسلم إلى الكونجرس فى التاريخ الأمريكى. الخبر المختزل المتوارى، يقول إن الناخبين الأمريكيين اختاروا الشاب المسلم

أندريه كارسون (٣٣ عاما) لعضوية الكونجرس عن ولاية إنديانا في انتخابات خاصة بعد وفاة جدته جوليا كارسون التي كانت ممثلة الولاية، وأنه سبقه انتخاب مسلم آخر لعضوية الكونجرس عن ولاية مينيسوتا. هذا الخبر المزدوج الذى لم نحسن تصديره واستقصاء دلالته !

تأتى أخبار انتخاب السيناتور الجديد المسلم، مع ارتفاع معدلات الإسلام فى أمريكا، وسابقة انتخاب المسلم الآخر - شهادة للإسلام بأنه جاذب يعطى النموذج لحسن وكمال الخلق والسلوك. ولو كان دين عنف وإرهاب لما قدم هذه النماذج، ولما اعتنقوا الإسلام أصلاً ! قارن مثلاً محمد على كلاى الملاكم الأعظم فى تاريخ الملاكمة، هذا البطل الأسطورة الذى إعتنق الإسلام وتسمى بمحمد على، قارنه بغيره من الملاكمين لترى الفارق الكبير فى المعدن والسلوك.. يشهد لمحمد على كلاى بأنه صار بالإسلام نموذجاً لرياضى على خلق رفيع وإنسان يفيض إنسانية وصاحب رسالة وعطاء لأوجه البر والخير ودعم مجتمع الفقراء، بينما غيره من الملاكمين أبطال أيضا ولكن فى الجنوح والمخدرات والاغتصاب والقمار.. لا يخرج بعضهم من السجن إلاّ ليعود إليه بعد أن بدد على جنوحه مئت الملايين !

لا أدرى لماذا لا نكثف علاقاتنا بالمسلمين فى شتى بقاع الأرض، ونقيم وإياهم جسوراً تكشف وجه الإسلام الصبوح، بدلاً من الملصقات والشعارات والأعلام التى جعلت تتزايد حاملة السيفين المتقاطعين إلى جوار المصحف أو اسم الجلالة، مع أن الهلال يغنى فى التعريف بالإسلام، وكعنوان له، بدلاً مما يوحيه أو يتيحه السيف لصيادى الإساءة ليقيموا من حولها مناحة باتهامات الإرهاب أو بالرسوم المسيئة ؟!

صورة المسلم الصحيحة التى صارت الآن تملأ شتى بقاع الأرض، هى أبلغ رد على حملات الإساءة والتجنى على الإسلام مهما علت موجتها وتنوعت أساليبها ورسوماتها وصورها.. هذه النماذج الإسلامية تحمل فى بساطة ويسر رداً مفحماً على التهجم الجائر على الإسلام والمسلمين أجدى من الدفاع ومن كل ردود الأفعال الغاضبة المتشنجة التى تأخذ منا ولا تعطينا.. قيمة ما يقال أو يجسد هناك - أنه آتٍ منهم وبلغتهم.. آية ناطقة لديهم لا تكلفنا سوى الالتفات إليها وإبرازها فى إطار رؤية وخطة شاملة وآلية مؤهلة قادرة متصلة تتابع إيضاح الإسلام لنا وللعالمين.

* * *

رأينا أن حملات الإساءة للإسلام، والتهجم عليه وعلى رسوله الكريم، لا تمس المشاعر وكفى، وإنما هى ضمن خطة مدروسة منظمة لبث الكراهية للمسلمين، والعدوان عليهم فى أوطانهم تحت ذرائع مختلفة، كما حدث فى العراق ومن قبلها فى أفغانستان، ومن قبلهما فى البوسنة والهرسك.. غير ما تورى المقدمات بأنه يدبر ضد سوريا وإيران، فضلا عن الانتهاكات والمؤامرات الجارية فى لبنان، وحرب الإبادة فى غزة وباقى فلسطين.. ويدخل هذا المخطط فى اعتباره - حصار الأقليات الإسلامية وخنقها فى أوروبا والأمريكتين، وإحالة حياتها إلى جحيم يلجئها إلى الانكماش أو المغادرة.. هذا الهجوم الجهول على الإسلام، يجاوز فى ضلاله وتوحشه كل ما سبق أن تعرض له الإسلام والمسلمون فى السالف من هجمات ضالة ساهم فيها كتاب وفلاسفة وملوك وأباطرة وجيوش !

خطأ بالغ مواجهة هذا المخطط بردود أفعال هنا وهناك، متفرقة شاردة موزعة غير مترابطة، مغموسة بالغضب والانفعال، تعطى مادة لمزيد من الافتئات على المسلمين ودينهم، بأكثر مما ترد عنهم إساءات المسيئين وكيد وتدبير الكائدين. الرؤية الشاملة المطلوبة لمواجهة هذه الحملات - يجب أن تتسع لنا، ماذا علينا فى سلوكنا وفى صورتنا أن نصححه ونلتزمه، وأن تتجه أيضا للأغيار.. من ساءت أو حسنت مقاصدهم، فالخطاب المتجه إليهم، وأساليب التعامل معهم، تختلف بلا شك عن وسائل وأساليب التعامل مع أنفسنا وإخواننا فى ديارنا.

مع أن الدنيا من نصف قرن لم تكن كالحال الآن الذى فيه تزايدت الحملات على الإسلام، إلاّ أننا نرى كاتبا فردا : عباس محمود العقاد، يضع كتابا (الهلال ديسمبر ١٩٦٦)، مادته وعنوانه : " ما يقال عن الإسلام "، لا يتشنج ولا يهتاج وإنما يتأمل ويتقصى كتابات الغربيين فيما يكتبونه عن الإسلام كتابة تتفاوت تبعا للبواعث والنيات أضعاف التفاوت الذى مرجعه لقدر الدراية والمعرفة.. منهم من ينحرفون عن الصواب اضطراراً أو اختياراً بباعث من التعصب، ومنهم من يخدمون السياسة الغالبة على دولهم، فيصطنعون لغة الدعاية ضد الإسلام اصطناعا، ومنهم طلاب معرفة حسنت نواياهم ولكن لم تسعفهم معرفتهم وأدوات بحثهم، ومنهم ولو قليلون ينشدون الرأى خالصا لوجه الحقيقة العلمية، ولكنه رأى مشوب بالقصور الذى لا مفر منه لمن يكتب عن الأدب فى لغة غير لغته فضلا عن أن يكون من غير أهل الأدب فى لغته.. لا يضيق العقاد بشىء من ذلك، وإنما يستعرضه ليقول لنا إنه من حقنا - بل واجبنا - أن نعرف ما يقال عنا، وأن نعرف كل قول من تلك الأقوال بقيمته.

وقيمة من يصدر عنه، ليس فقط لنرد عليها ونوضح وجه الخطأ أو الصواب أو القصور فيها، بل لأننا نستطيع أن نعرف أنفسنا من شتى نواحيها كلما عرفناها كما ينظر إليها الغرباء عنها، وعرفنا مبلغ الصدق والفهم إن كان، ومبلغ الخطأ فيما يعتقدون فينا أو يظنون عن هوى أو جهالة !

وجوب الالتزام بالفعل لا برد الفعل، يستوجب أن يتضافر عليه المسلمون والدول العربية والإسلامية بعامة، لا للغضب من وقت لآخر على رسم أو قصة أو رواية أو فيلم، ولا لمعاداة الغرب أو غير المسلمين، فالإسلام يمد يده إلى الدنيا بالسلام، واسمه منحوت من السلم والسلام، والسلام هو تحية الإسلام، وقرآنه المجيد يحض على السلام ويدعو إليه، فهو مهجة وروح الإسلام.. تحية الله للمؤمنين هى تحية سلام : " تحيتهم يوم يلقونه سلام ". (الأحزاب ٤٤).. ومستقر الصالحين دار أمن وسلام : " والله يدعو إلى دار السلام " (يونس ٢٥).. " لهم دار السلام عند ربهم " (الأنعام ١٢٧).. وأهل الجنة لا يتحدثون بغير لغة السلام : " لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما " (الواقعة ٢٥، ٢٦).. ورغم ما لاقاه الرسول الكريم يقول له القرآن المجيد " وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ". (الأنفال ٦١) ومع هذا نترك هذا الرصيد لنتخذ من السيفين المتقاطعين رمزا للإسلام مع المصحف أو اسم الجلالة، مقدمين بلا وعى المادة التى يتصيدونها لإقامة مناحة حولها أن الإسلام يحض على العنف والإرهاب !

تضافر المسلمين إزاء هذه المفتريات ليس للبغى والعدوان، وإنما لتوفير آلية مهيأة بالمال وبالعلم وامتلاك اللغات، لبث صورة المسلم

والإسلام الصحيحة إلى الدنيا بلغاتها.. إلى الغير قبل الذات، بالبث المرئى والمسموع، وبالكتاب والمجلة والجريدة، وبمظهر سلوك المسلم ذاته، ليروا الإسلام كما هو لا كما يتوهمون أو يتصورون أو يغالطون.. ليعرفوا أن هذا الإسلام دين سماحة وإنسانية وإخاء، تتسع واحته لغير المسلم كما تتسع للمسلم، لا عصبية فيه للعرق أو للدين، يحترم جميع الرسل والأنبياء، قوامه العقل والحكمة والموعظة الحسنة، يقدس الروح حتى فى الحيوان، ويوقر العلم والعلماء، والعمل والاجتهاد، ويدعو إلى عمار الحياة، ويتخذ من المسلم صحيح الإسلام عنوانه ورسالته إلى الدنيا. لا عذر للمسلمين ولديهم المال والإمكانيات ــ لاعذر لهم أفراداً وجماعات وأمماً ودولاً فى التقاعس عن إنشاء هذه الآلية. ربما كانت متوفرة فعلا فى هذا المؤتمر أو ذاك، أو هذه الهيئة أو تلك، ولكن ينقصها الالتفات والدعم المالى والبشرى، والاستمرار فى بث صورة الإسلام الصحيحة إلى الدنيا، ليعرف من لا يعرف حقيقة الإسلام، وليضيق الخناق على من يرمون الإسلام والمسلمين عن غرض أو عداء !

غاية هذه الآلية أن نبسط للدنيا، لنا وللآخرين، أن الإسلام دين عالمى يتجه إلى العالمين، أمس واليوم وإلى يوم الدين.. وأن هذه الخاصية قد أوجبت أن يكون دينا مفتوحا يتجه بدعوته وهدايته إلى الناس كافة، بلا تفرقة لعرق أو جنس أو وطن، وأن هذه الغاية تستوجب بداهة أن يكون دينا جاذبا محببا لا طاردا ولا منفرا، ومحال وهذه غايته أن يميل إلى العنف أو الإرهاب، فكلاهما ينفر لا يحبب ولا يجذب، أو أن يتوسل إلى ما يريده من انتشار وهداية بالسيف أو الإكراه.. فلا إكراه فى الدين فى الإسلام، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة هى غايته وسجيته،

والمساواة والإسماح والعدل دستوره.. لا يعطى ظهره للأديان السابقة، وإنما يجعل قرآنه المجيد من الإيمان بهم جزءا لا يتجزأ من الإيمان بالإسلام، لذلك تحدث بأجمل الحديث عن كافة الأنبياء والرسل، وكرمهم أجمل تكريم، ومن سوره ما أطلق عليه أسماء الأنبياء بل والأولياء السابقين وعائلاتهم، كسورة آل عمران، ويونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، ومريم، والأنبياء، ولقمان، ويس، ونوح.. لا يجد المسلمون بأسا ولا حرجاً من التسمى بهذه الأسماء، فترى فيهم أسماء نوح، وهود، ويوسف، وإسحق، ويعقوب، وعيسى، وموسى، ويحيى، وشعيب، وأيوب، وهارون، وزكريا.. دين يحترم العقل ويجعل التفكير فريضة فيه، ويحترم العلم والعمل، ويقدس الروح حتى فى الحيوان، ويقيم سننه على العدل والإسماح والمساواة، وعلى منظومة متكاملة من السجايا والشمائل التى تتجه فى مجملها ومغزاها إلى رعاية الأغيار أمانة وصدقا وعطفا ورحمة وإخلاصا ووفاء بالمواثيق والعهود. هذه هى حقيقة الإسلام الذى سيبقى للآلية المتضافرة أن تتدبر كافة الوسائل لتوصيلها إلى المسلمين حتى لا يتطرف منهم أحد أو يجنح عن صحيح الإسلام، وإلى الأغيار حتى يفهموا هذا الدين الحنيف حق فهمه، ولو فهموه لما تطاولوا على رسوله هذا التطاول المؤسف !

لو التزمنا بأسلوب الفعل وأدائه، لتابعنا بكل السبل حملة مدعومة بالحجة لحض المجتمع الدولى ومنظماته الدولية على تجريم ازدراء الأديان.. التجريم الذى يتفق مع ما يجب للأديان من احترام، ويستبعد مخاطر التذرع بحرية الرأى والتعبير للإساءة إلى الأديان والأنبياء !

من المهم أن يدرك المجتمع الدولى أن الجميع سوف يدفعون ثمنا فادحا إذا استمرت هذه الحملات المهينة للأديان وجرى التقارع بين ابنائها بأسلوب الفعل ورد الفعل، فتطول المحاجاة والإساءة كافة الأديان، بينما هى سقوف البشرية التى تضبط ما لا تستطيع القوانين والنظم ضبطه، وتقوم من السلوك ما قد لا تكفى الأساليب الوضعية لتقويمه، لأن الاديان تخاطب مناطق فى الوجدان والضمير لا يستطيع غيرها أن يخاطبها أو أن يكون مؤثرا فيها. ماذا سوف تجنى البشرية يوم يفلت العيار فيرد كل طرف على الآخر بضرب دينه والتغول عليه للانتصار للنفس ورد هجوم المتهجم إلى نحره ؟!.. لن تستطيع أى قوة أن تسيطر على حرب الأديان إذا اشتعلت، ولن يهدأ للبشرية بال أو يتوفر لها أمان لو صارت الأديان مادة فى هذه اللعبة الحمقاء الكفيلة بتدمير كل شىء ما لم يتداركها العقلاء ويجرم المجتمع الدولى وبعقوبات رادعة ازدراء الأديان !